أضواء على حديث افتراق الأمة

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(" لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلانِيَةً، لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي") .

الحديث لم يخرجه صاحبا الصحيحين ورواه أحمد وأهل السنن من طرق فالحديث بمجموع طرقه ثابت ، لكن لا يجب أن ينظر إليه وكأنه لم يرد في باب الاختلاف غيره ، وكلما أراد أحد أن يتكلم في الخلاف لم يذكر إلا هذا الحديث .

* وقد استشكل جمعٌ من أهل العلم كثرة الفرق في هذه الأمة، كما هو مذكور في الحديث، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأجوبة؛ منها:

ـ طول عمر هذه الأمة وامتدادها كما هو معروف.

ـ أن تفرقها أهون شراً من تفرق غيرها من الأمم قبلها، وهو مُقابل بألوان من الخير والفضل تقابل النقص الحاصل به، والفرقة لا يلزم أن تكون كثيرة العدد؛ فلو أن اثنين افترقا لاعتبر فرقة، إذاً قد تكون ثلاث وسبعين فرقة، ومع ذلك لا تشمل إلا قسماً محدوداً من الأمة.

ـ إنما الإشكال الحقيقي لدى من يجعل نفسه الفرقة الناجية، ثم يصمُ الآخرين بالضلال ويتوعدهم بالنار، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : **"إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ"** . يعني: أشدهم هلاكاً، وفي رواية "أَهْلَكَهُمْ" أي تسبب في هلاكهم.

ـ هذه الفرق الثنتان والسبعون أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم من أمته، و"ستفترق هذه الأمة" و"ستفترق أمتي", إذاً هم ليسوا بكفار ولا مشركين، لكنهم مسلمون مؤمنون، وقد يكون فيهم المنافق، أو الكافر، لكن فيهم كثير كثير من هذه الأمة من أهل الإيمان والإسلام، وإن كان عندهم نوع من الاختلاف ونوع من التقصير.

ـ وهذا وعيد لا يلزم تحققه، ولذا يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-:هذا الحديث ليس بأعظم من قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) [النساء:10]، وقوله سبحانه: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً) [النساء:30]. ومع ذلك لا نشهد لمعيّن بالنار؛ لإمكان توبته من ذنبه، أو كانت له حسنات محت سيئاته، أو كفر الله عنه بمصائب وغير ذلك.

ـ لم يكن من شأن الذين سبقونا من علماء ومن فقهاء -رضي الله عنهم- الاشتغال بتعيين هذه الطوائف .

ومع أنه لدينا أحاديث كثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم منها قوله **:(من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)** .ورد في صحيح ابن خزيمة ، وجاء في البخاري : **(يقول الله تعالى : وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنَّ منها (أي من النار) مَن قال لا إله إلا الله)** . وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقُلتُ : يا رسول الله وإن زنى وإن سرق ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وإن زنى وإن سرق) .**

فهل يجوز لنا بعد هذه الأحاديث المباركة ، التي تفتح أبواب الأمل للمذنبين والمقصرين ، أن نحكم على الخاطئين بأنهم من أهل النار ، دون إعلام من الله لنا ؟!!

ولقد جاء في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ومن لعن مؤمناً فهو كقتله ، ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقتله)

و القانون يُجرِّمُ على القتل ، ولا يجرم على التكفير ، مع العلم أن كليهما في الخطر سواء ، فعلينا أن نحذر من رمي المسلمين بالكفر وفساد المعتقَد لشُبه نتخيلها .

فهذا أسامة بن زيد يراقب عدواً يمعن في إيصال الأذى في المسلمين ، فترصد له حتى تمكن منه فرفع سيفه ليقتله فقال الرجل : لا إله إلا الله ، ومع ذلك قتله ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتب أسامة عتاباً شديداً وقال **:**

(يا أسامة كيف تقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله ؟) ، قال : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من القتل ، فقال صلى الله عليه وسلم : **(هلاّ شققت عن قلبه ؟)** وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة كُلّما رأى إسامة عاتبه على ذلك حتى تمنّى أنه لو لم يسلم إلا بعد هذه الحادثة .

وقد جاء في سنن أحمد وفي المستدرك وفي الأوسط للطبراني وفي الإصابة لابن حجر : عن عبد الله بن بشر عن أبي رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لتُفتحنَّ القسطنطينية ، ولنعم الأميرُ أميرها ، ولنعم الجيشُ ذلك الجيش) .

ومن المعلوم لدينا أن الجيش الذي فتح القسطنطينية كان من أتباع الأئمة الأربعة وعلى طريقة أبي الحسن الشاذلي وأبو منصور الماتريدي في الاعتقاد ، وعلى منهج أهل السير والسلوك في الأخلاق .

وأمير الجيش هو محمد الفاتح وكان حنفي المذهب أشعريَّ المعتقد سالكاً ، ومع ذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يثني على الأمير وعلى ذلك الجيش أيضاً ويزكيهم ، وهذه التزكية تفيد صحة ما كانوا عليه من معتقد وسلوك .

فمما سبق نصل إلى نتيجة مفادها أن حديث الافتراق ينبغي أن يوضع في إطاره الصحيح ، وإن كان ثابتاً عندنا إلا أنه ينبغي ألاَّ يُتعدى به قدره ، وألا يكون سبباً لإشاعة الفرقة والخلاف بين المؤمنين .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنَّ الكلام في هذا المنحى يروق لأعدائنا المتربصين بنا على حدود وطننا الذي هو بأمس الحاجة لتوحدنا وترابطنا وتراص صفوفنا ..... والله المستعان .

الدكتور محمود قول آغاسي